الرؤيا المنقذة

في صباح يوم الاثنين ١٦ /٥ / ٢٠١١ التقيت مع بطل هذه القصة الشيخ عبدالتواب على الروضان ، السوري الأصل من مدينة دير الزور الذي تشرفت بلقائه أول مرة في ديوان الدكتور إبراهيم الخليفي في منطقة الخالدية في الكويت . استمعت بإنصات وإعجاب في ذلك الديوان إلى قصته التي أدهشتني أحداثها وهمة بطلها الشيخ عبدالتواب ، فطلبت اللقاء معه مرة أخرى منفرداً لأعرف منه أكثر عن تفاصيل قصته وخفاياها التي لم يسمح له وقت مجلس الدكتور إبراهيم بالبوح بها جميعاً .. فكان ذلك اللقاء معه في صباح يوم الاثنين .

يقول الشيخ عبدالتواب : أنا من مواليد سنة ١٩٥٤ ، دخلت الكويت سنة ١٩٧٩ وعمري ٢٥ سنة تقريبا ، ولا أملك من الشهادات إلا شهادة الصف الثالث الابتدائي . لا يوجد من آبائي أو أجدادي من يعرف القراءة والكتابة ، إنهم لا يعرفون حتى أن يكتبوا الاسم الأول لهم . وهذا الجهل ليس بغريب علينا ! فالأميّة متفشّية منتشرة في مدن محافظتنا كلها .

عملت في سوريا قبل أن آتي إلى الكويت عدة أعمال مختلفة ، فعملت في فلاحة الأرض ، ثم راعياً للغنم عشر سنوات ، ثم عاملاً في أعمال البناء . لكنني لما دخلت الكويت في ذلك العام ، عملت فيها نجاراً في أعمال البناء والمقاولات . فنحن السوريين من دير الزور معروفون بهذه الأعمال ولا سيما أعمال الحدادة والنجارة . وبعد فترة من العمل في الكويت ، أصبحت مقاولاً أعمل لحسابي الخاص .

وخلال هذه الفترة وفي أثناء عملي في المقاولات .. جاءني أحد الإخوة السوريين وقال لي : هناك مركز في منطقة الرميثية يعلمونك فيه كيف تقرأ وتحفظ القرآن الكريم ، فما رأيك أن نسجِّل في هذا المركز ؟ سألني هذا السؤال وأنا في تلك الفترة بعيد عن الدين ، لا أعرف القرآن ، وليس عندي أي ثقافة ، فآخر شهاداتي هي شهادة الصف الثالث الابتدائي .. هذا كان آخر عهدي بالتعليم والمدارس . لكن هذا الأخ السوري أغراني قليلاً ، فقال لي : تأتي وتعود معي في سيارتي ، ولن أحملك أجرة التوصيل أو البنزين ، فقط أريد صحبتك في الطريق . وافقت على طلب هذا الصديق ، وبدأنا نذهب معاً إلى هذا المركز بانتظام ، فكان عام ١٩٨٧ هو أول بداياتي مع هذا المركز .

وفي مركز الرميثية التقيت بشيخ مصري كريم أعجبت به كثيراً ، يُعدُّ أحد علماء القراءات العشر ، واسمه الشيخ عبدالسلام حُبُوس رحمه الله وأدخله فسيح جناته . فقد كان هذا الشيخ من أهل الصيام والقيام ، ذا صوت شجي جميل في القرآن ، ذا هيئة وسمت يعلوه الوقار والهيبة ، مخلصاً دقيقاً في التصحيح والتدريس ، كريماً بشوشاً . إذا رآك حتى ولو لأول مرة ، يرحب ويبش ويبتسم في وجهك وكأنه يعرفك منذ زمن .

التزمت الحضور في مركز القرآن ، والتزمت دروس الشيخ فلا يفوتني منها شيء إلا ما ندر . وفي عام ١٩٩٢ قلت للشيخ : أتمنى - إذا سمحت لي وسمح وقتك - أن أقرأ عليك ختمة قرآن نظراً من المصحف ، فما رأيك يا شيخي ؟ وافق الشيخ على طلبي ، فأنا أحد الناس الذين لا يمكن له أن يحفظ القرآن عن ظهر قلب ، هكذا كنت أعتقد . أنا رجل مشغول في المقاولات ، مصاب بمرض السكري الذي تصل نسبته في دمي أحيانا إلى ٤٥٠ و٥٠٠ وحتى ٥٥٠ ، عندي زوجتان وتسعة أولاد وسبع بنات ، فمن أين لي الاستطاعة أن أحفظ القرآن أو أن أفرغ نفسي لحفظه ؟!

openkanal.com

استمررتُ عند الشيخ ثلاث سنوات ونصف وأنا على هذه الحال أقرأ عليه من المصحف ، أما حال غيري من الطلاب الآخرين فالكل يحفظ ويأتي الشيخ ويسمِّع من حفظه من دون أن يفتح أحد منهم المصحف ، كم كنت أغبطهم على شبابهم وفراغهم .

والحقيقة تقال إني أرهقت الشيخ معي كثيراً ، فكان واسع الصدر كريماً على تصحيحه لي وتعليمي ، عظيم الصبر على نسياني وأخطائي ، أخطائي التي لا تنتهي أبداً . فأنا مثل ما قلت آنفاً قليل ثقافة ، لا أملك من الشهادات إلا شهادة الصف الثالث الابتدائي ، فكنت أعاني مع القراءة كثيراً ، فرحمك الله رحمة واسعة يا شيخ عبدالسلام على صبرك وحلمك علي .

وفي يوم من أيام شهر أكتوبر عام ١٩٩٥، لما وصلت في قراءتي مع الشيخ إلى سورة لقمان ، يعني أنه ما بَقِيَ عليَّ إلا حوالي تسعة أجزاء فقط من المصحف حتى أختم القرآن - طبعا قراءةً وليس حفظاً - في هذا اليوم .. قابلت الشيخ عبدالسلام وكان متضايقاً جداً . كانت علامات الضجر والضيق واضحة على وجهه ، فقلت من فوري للشيخ : ما الخبر يا شيخ

؟ أثَمَّ مكروه ؟ أرى على وجهك الهم والضيق ، هل أقدر أن أساعدك بشيء ؟ فقال لي : رأيت البارحة حلماً مزعجاً . فقلت : خيراً إن شاء الله ، ماذا رأيت يا شيخنا ؟ فقال : رأيت الشيطان . قلت : الشيطان يا شيخ جاءك في الحلم !! كيف كان شكله ؟ قال : يشبهك أنت تماماً ، جاءني وقال لي : هناك أحد الطلبة عندك اسمه عبدالتواب طويل القامة لحيته كثة وشعره كثيف ويقرأ عندكم من المصحف ، لا نرغب نحن الشياطين في حفظه وسنعمل على تثبيطه وتشويشه كي لا يحفظ القرآن عن ظهر قلب . قال الشيخ بعد أن أطلعني على حلمه هذا : أقسم بالله أقسم بالله أقسم بالله ، لن أجعلك تُكْمِل معى القراءة نظراً من المصحف ، إلا بعد ما تُسمِّع لي حفظاً خمسة أجزاء كاملة .

صدمت من حلم الشيخ وقسمه ، فقلت له : يا شيخ أنت تعرف ظروفي ، أنا الآن كبير في العمر ، عندي زوجتان و ١٦ ولداً وبنتاً ، مصاب بالسكري ، أنت تراني كيف يغمى عليَّ أحياناً كثيرة حين ترتفع نسبة السكري في دمي .. أرجوك يا شيخ دعني أستمر معك على ما كنّا عليه . فقال بشدة وبقسوة ما عهدتها في الشيخ أبداً : والله أنت حر ، لكن لا تسميع من المصحف بعد هذه الساعة حتى تحفظ الخمسة أجزاء . قلت:

يا شـــيخ أنا أخـــاف أن أموت وأنا بعد ما حصلت على إجـــازة القرآن منك ، فدعني أكمل معك قراءة التسعة أجزاء المتبقية عليَّ ، وبعدها أعاهدك أني سأحفظ هذه الأجزاء الخمسة . فقال الشيخ : لا اطمئن إذا مُت سأجيزك أنـــا فيما تبقـــى عليك ، ثم آخذ بنفســـي إجازتك وأضعهـــا على قبرك في الصليبيخات (منطقة سكنية في الكويت تقع فيها أكبر مقابرها) .

يقول الشـــيخ عبدالتواب معلقاً على كلام الشـــيخ هذا : إنَّ بعض مشايخ القـــرآن يمكنه أن يكتفي منك بقـــراءة جزء واحد فقط ليعطيك الإجازة في الســـند - ســـواء قراءةً من المصحف أو حفظاً عن ظهر قلب - إن سَـــمِعَ منك قراءةً سليمةً وإتقاناً في التجويد . وبعض المشايخ لا يكتفي بجزء واحد ، بل لا بدَّ من قراءة خمســـة أجزاء ، وبعضهم عشـــرة ، وبعضهم يشترط القرآن كله . فكأن الشـــيخ عبدالسلام يقول لي في ما مضى من حديثه : إذا مت يا عبدالتواب وأنت لم تقرأ عليَّ هذه الأجزاء التســـعة ، سأجيزك فيما تبقى لك ، وأضع إجازة السند على قبرك .

يكمل الشـــيخ عبدالتواب حديثه فيقول : خرجت من عند الشيخ وكأن

كل هموم الدنيا على رأسي .. ماذا أعمل الآن ؟ وبعد ساعة من الهم والغم والتفكير .. خرجت من مركز القرآن في الرميثية واتجهت إلى مبنى الجوازات ، فألغيت تأشيرات أهلي وأبنائي . وفي عصر اليوم نفسه .. ذهبت إلى أهلي وعلامات الهم والضيق بادية على وجهي ، وقلت لهم : يجب أن نسافر غداً إلى سوريا ، لم يعد لنا في الكويت غرض ولا حاجة ، فجهزوا أنفسكم وحقائبكم . قلت لأهلي هذا الكلام رغم أنَّه لم يمض على قدومنا من سوريا سوى أيام معدودة .

فلما وصلنا إلى سوريا .. قلت لأهلي : يجب أن تعرفوا أن بقية حياتكم ستقضونها هنا ، انسوا الكويت لن ترجعوا معي لها أبداً . فقالت إحدى زوجاتي : يا عبدالتواب إنَّ مستقبل الأبناء وتعليمهم في الكويت ، والناس تدفع آلاف الليرات لتقصد الكويت . فقلت لها : أنا عندي عمل كثير وأمامي تحدٍ عظيم ، لن أكون بعد هذا اليوم متفرغاً لكم ، فالله يعينني ويعينكم . أنتم الآن بين أهلكم وإخوانكم ، والرزاق سبحانه وتعالى حي يطعمكم ويسقيكم .

رجعت إلى الكويت وحدي ، وعزمت من أول يوم على ترك أعمال

المقاولات . وفعلاً بعد أيام قليلة .. توسَّط لي الشيخ نادر النوري حفظه الله في البلدية لأعمل في المقبرة أصلي على الجنائز ، فكان هذا العمل فرصتي لأتفرغ للقرآن أكثر . قلت لنفسي لا بدَّ أن يتغير نظام حياتي وأولوياتها ، فاعتزلت كل الذين أعرفهم ودواوينهم ، وقطعت كل علاقاتي بمن أعرف . ألغيت خط هاتف البيت ، وبعت جهاز المناداة (البيجر) الذي عندي ، رغم رقمه المميز جداً .

في المقبرة وعند انتهاء عملي الأساسي ، كنت دائماً ما أقصد مسجد المقبرة أو مكاناً معزولاً لأحفظ فيه ، ولأبتعد عن العمال وكلامهم وموائدهم وسمرهم . أنهي عملي ثم أتغدى مع العمال وأسحب نفسي بهدوء إلى مكان بعيد أفتح فيه مصحفي الذي دائما هو في جيبي لأحفظ منه . أنا حقاً أريد أن أتفرغ للحفظ أكثر ، ولا سبيل إلى ذلك إلا بالعزلة أو الإقلال من مخالطة الناس . كذلك صرت مقلاً من الأكل ، لا آكل في يومي إلا وجبتين ، إما الفطور والغداء أو الغداء والعشاء .

أصبحت ما إن أدخل بيتي الصغير في الصليبيخات والقريب من المقبرة ،

إلا وأغلق بابه خلفي وأتجه مباشرة إلى المصحف أحفظ منه ، وأي شخص يـدق الباب علي ، كنت أحاول من وراء السـتارة اختـلاس النظر إليه ، فإن كان الأخ الـذي يوصلنـي إلى مركـز القرآن في الرميثية أفتـح له ، وإن كان غيـره أتركه يدق البـاب حتى يملَّ وينصرف . وبعد فترة .. فكرت أن أختبئ من الناس وأحفظ القرآن في المسـجد . فاسـتطعت أن أتحايل على عامل المسـجد القريب من سـكني ، وقلت له : في أحيان كثيرة آتي إلى المسـجد مبكراً ، وأكره أن أوقظك من نومك ، فما رأيك أن تعطيني نسخة من مفتاح المسـجد لأدخل إليه من دون أن أضطر إلى إزعاجك وإيقاظك في كل مرة ؟ وفعلاً وافق عامل المسـجد على طلبي وعمل لي مشكوراً نسخة من المفتاح وأعطاني إياه .

كانـت بدايـة الحفظ صعبةً جـداً ، أردد الآية ٢٠ مرة ومـا تثبت ، وبعد ذلـك هداني الله إلى طريقة سـهَّلت عليَّ الحفظ قليـلاً . وضعت قرآنيين للحفظ في المسـجد ، واحد في أول المسجد وواحد في آخره . فأبتدأ الحفظ مـن المصحف الأول قارئاً آيةً واحدةً منه ، ثم أمشـي إلـى المصحف الثاني مردداً تلك الآيـة ، فما أكاد أصل إلى المصحف الثاني إلا وقد حفظت الآية

الأولى ، ثم أقرأ آية ثانية من المصحف الثاني أظل أرددها راجعاً حتى أصل إلى المصحف الأول ، وهكذا حتى حفظت أكثر القرآن من هذا المشي بين المصحفين .

كنت كلما تعبت من المشي بين المصحفين ، استلقيت على سجادة المسجد لأضع عن يميني مصحف وعن شمالي مصحف ، فأقرأ من المصحف الأول مدة من الزمن ، فإذا أحسست بالتعب أقلب جسمي للجهة الثانية وأقرأ من المصحف الثاني ، وهكذا أتقلب يميناً وشمالاً بين المصحفين حتى تنعس عينيَّ وتنام . وبعد فترة .. علقت أمام وجهي وفوق رأسي مصحفاً ثالثاً يعينني على عدم التوقف عن الحفظ حال نومي على ظهري . فصرت أنام وعن يميني مصحفاً وعن يساري مصحفاً وفوق رأسي مصحفاً ، أحفظ منها جميعاً .

كذلك أحضرت مصباحاً يدوياً صغيراً جداً ، أسلط نوره في الليل - وأنوار المسجد مطفئة - على الآية التي أنساها أو يصعب حفظي لها ، فأُبقي بقعة النور عليها مردداً إياها حتى أحفظها ثم أنام . لقد صارت ساعات نومي قليلة جداً ، فكانت لا تتعدى الخمس ساعات أبداً . كنت أحفظ

القرآن بين الظهر والعصر ، وأراجع حفظي بعد العشاء والفجر ، وبعد عدة أيام .. استطعت أن أحفظ عن ظهر قلب أول جزء من القرآن .

ذهبت عند الشيخ عبدالسلام حُبوس وقلت له حفظت جزءًا واحداً . فقال وهو لا يزال يُبدي لي على وجهه علامات الزعل والغضب مني : طيب سوف نرى .. سمِّع ما حفظت . وبعد أن انتهيت من التسميع ، هزَّ رأسه وقال : هذا جيد ، اذهب الآن وأكمل الذي بدأته .

وبعد أقل من شهر .. كنت قد حفظت أربعة أجزاء أخرى أتممت بها حفظ الخمسة أجزاء كاملة التي طلبها الشيخ . فلما قرأتها على الشيخ قال لي : أنت الآن تجاوزت القنطرة ، تجاوزت العقبة ، تفضل مفتاح بيتي . فقلت للشيخ : مالي حاجة في مفتاح بيتك . فقال الشيخ : أقسم بالله عليك أن تأخذه ، يا بني لا أعرف أحداً من الناس عملت معه هذا الاختبار وهذه الحيلة - اختبار حلم الشيطان - إلا ويفشل في الاختبار ويمل وينسحب من الحفظ ، إلا أنت . فهذا مفتاح بيتي تقدر أن تدخل عليَّ في أي وقت . أهلي في مصر فتعال في أي وقت ، فلعلك احتجت إلى وقت إضافي للتسميع ، أو لربما يعوزك شيء من بيتي .. اجعل هذا المفتاح عندك يا عبدالتواب .

وفي أربعة أشهر ونصف ، في شهر فبراير سنة ١٩٩٦ .. استطعت أن أحفظ القرآن كاملاً وأختمه بالتجويد الصحيح من رواية حفص . فرح الشيخ من هذا الإنجاز فرحاً عظيماً ، وكتب لي الإجازة ووقعها لي ولم يعطني إياها !! لقد أخذها الشيخ إلى دار القرآن في الرميثية ، وقال للطلاب بفرح وزهو : أتدرون لمن هذه الإجازة ؟ هذه الإجازة للشيخ عبدالتواب .

طبعاً لقد صُعق الجميع .. وقالوا لبعضهم ولأنفسهم : هذا الرجل الكبير المريض بالسكري ، الذي كثيراً ما يصرعه مرضه حتى يفقده الوعي ، الأمي صاحب شهادة الثالث الابتدائي ، استطاع حقاً أن يحفظ القرآن بالسند وبالتجويد المتقن ! هذا مستحيل !! ولذلك بعد هذه الحادثة وبعد مدة ليست بالبعيدة ، استطاع ٥٠ طالباً وطالبة من طلاب الشيخ أن يحفظ القرآن ويأخذ السند من الشيخ .. أعتقد أنني كنت مثالاً جيداً لهم .

لم تنتهِ القصة بعد .. يقول الشيخ عبدالتواب : وبعد ستة شهور ، في شهر أغسطس عام ١٩٩٦ ، قال لي الشيخ عبدالسلام : أنا سأبدأ بعد أيام قليلة بدورة في القراءات السبع ، أريدك أن تنضم إليها . فقلت له : يا

شـيخ أنا بالكاد أنهيت رواية حفص ، فكيـف تريدني الآن أن أتعلم وأحفظ القراءات الباقية ؟! أنا أكتفي بما حققت وأنجزت . فقال لي الشيخ : اصبر وتحملني قليلاً ، أنا أريد أن أبدأ دورة الشـاطبية بعشرة أشخاص ، والمشكلة الآن أنَّ الطلبة المسـجلين في الدورة تسعة ، فأريد أن أكمل بك بهم العشرة . المهم أني وافقت على طلب الشيخ ودخلت معهم تلك الدورة .

طبعا الشـاطبية كلهـا عبارة عن ١١٧٣ بيت من الشـعر ، نظمها الإمام الشاطبي في كتابه حرز الأماني ووجه التهاني في القراءات السبع . فبدأها بحمد الله والصلاة والسلام على النبي [، وقال :

بدأت ببسم اللـه في النظـم أولا ... تبارك رحمانا رحيمـا وَمَوئـلا

وثنيت صلى الله ربي على الرضا ... محمدٍ المُهدَى إلى الناس مرسلا

ثـم أتبـع ذلك بمدح القـرآن الكريم والثنـاء عليه ، ثـم ذكر أصحاب القراءات السـبع وأشـهر راويين لكل منهم . فبدأ بالقـارئ الأول وهو نافع وأشـهر اثنين من طلابه رووا عنه (قالون وورش) ، ثم بعد ذلك ابن كثير ،

ثم بعد ذلك أبوعمرو .. إلى أن ينتهي بالقارئ السابع وهو الكسائي . ومن هذه الأبيات :

فمنهم بدورٌ سبعةٌ قد توسطت سماءَ العُلا والعدلِ زُهْراً وكُمَّلا
لها شهبٌ عنها استنارت فنوَّرت سوادَ الدجى حتى تفرَّق وانجلى

ثم بعد ذلك يذكر الشاطبي القواعد أو الأصول في التجويد ، ويبين اختلافات القرّاء السبعة في التجويد والأحكام أو تشابهاتهم . فيوضح مثلاً اختلافهم في المد ، أو اختلافهم في الوقف والوصل ، أو اختلافهم في بعض الحركات .. وهكذا . وكمثال واحد بسيط على ذلك الاختلاف قوله :

ومالك يوم الدين راويه ناصرٌ وعند صراطٍ والصراطِ لقنبلا

والذي يعنيه الشاطبي في شطر البيت الأول ، هو أن الذي يقرأ بمالك يوم الدين في الفاتحة هو الكسائي وراوييه الدوري وأبو الحارث ، وكذلك عاصم وراوييه حفص وشعبة ، أما بقية القراء السبعة فيقرؤون بملك يوم الدين .

obeikandi.com

والذي دل على ذلك هو حرف الأول من كلمة راويه (حرف الراء) الذي يشير إلى الكسائي ، والحرف الأول من كلمة ناصر (حرف النون) الذي يشير إلى حفص . علم زاخر عظيم لا يتقنه إلا المثابر صاحب النَفَسْ الطويل الموفق من الله .. فاللهم يا واسع العطايا والجود قدنا ووفقنا إليه .

لقد أصَّل الشاطبي للمقدمة والأصول والقواعد العامة للتجويد والاختلاف بين القرّاء بحوالي ٤٤٠ بيت من الشعر ، لكنه بعد تلك الأبيات بدأ بشيء اسمه الفَرْش . والفرش يعني التفصيل الدقيق لاختلافات القرّاء السبعة أو تشابهم في القراءة في كل سورة . فيبدأ بالفاتحة وبعدها البقرة وهكذا إلى أن ينتهي بالناس ، فاستعمل لذلك الفرش والتفصيل ٧٣٣ بيتاً من قصيدته الشاطبية .

يقول الشيخ عبدالتواب : بدأنا جميعاً بالأصول ، وهي الـ ٤٤٠ بيتاً ، وكان أول درس لنا في بيت الشيخ الفاضل حمد سنان ، ثم بعد ذلك انتقل الدرس إلى بيت الشيخ عبدالسلام حبوس في منطقة بيان . جلست في هذه الدروس - دروس القراءات السبع - سنة وثمانية

شـهـور وأنـا ما فهمـت منها شـيئاً واحداً ، فأنـا مثـل الـذي يقولـون : " مثل الأطرش في الزفـة " ، ما اسـتفدت منها شـيئاً أبداً ، ولم استطع أن أفهم من الأصول بيتاً واحداً .

طبعا الشـيخ عبدالسـلام لاحظ معاناتي وعدم فهمي لدروسه ، فصبر علي في البداية ، لكنه بعد ذلك قام يعنفني ويسخر مني أمام كل الطلبة . لقد كنت أكبر الحضور سـناً ، ورغم ذلك كان يقول لي : إخوانك في الدرس يناقشـونني ويسألونني وأنت جالسٌ بينهم كالأبله لا تفهم شيئاً ، جسمك هنا وعقلك مع أهلك وعيالك في سوريا ، الناس كلها تتقدم وأنت في مكانك لا تتقدم معهم خطوة واحدة .

يقول الشـيخ عبدالتواب : أعتقد أن الشيخ ما كان قصده أبداً السخرية منـي أو تحطيمـي ، أعتقد أنه كان يحاول أن يحـرك طاقتي الكامنة أو أن يسـتنهض أقصى ما لـدي من قدرات ، فلعل هذه القسـوة الشـديدة منه تزيدني عزيمةً وتحدياً لنفسي فأفهم الشاطبية .. فهمت هذا متأخراً جداً .

يقول الشـيخ عبدالتواب : تكرر هذا العمل من الشيخ ثلاث مرات ، وفي

المرة الثالثة .. ما استطعت أن أتحمل كلمات الشيخ القاسية ، فبكيت أمام الحضور جميعاً بكاء الأولاد الصغار ، لقد بكيت بحرقة ، وقلت للشيخ : اصبر عليَّ قليلاً ، أقسم بالله أقسم بالله أقسم بالله - وكان في يدي وأنا أقسم وأبكي كتاب الوافي في شرح الشاطبية للشيخ عبدالفتاح القاضي مجدد القراءات في عصره وهو صاحب كتاب البدور الزاهرة في القراءات العشر المتواترة - فرميته على الأرض من شدة غضبي وانفعالي ، وأقسمت له ثلاث مرات وقلت له : اصبر علي قليلاً ، وسترى أنه لن ينشر علمك أحدٌ غيري .

خرجت من درس الشيخ وأنا أبكي بقهر وحرقة شديدة ، والشيخ والطلاب كلهم مذهولون في حال عجب وانبهار من غضبي وبكائي . ذهبت مباشرةً إلى البيت والهم والغم يغطيني من رأسي إلى أخمص قدمي ، أبكي تخنقني العبرات والآهات ، فالدنيا أصبحت أمامي سوداء ضيقة . ومن كثرة ما ركبني من جبال الهم والضيق في تلك الليلة ، نعست عينيَّ ونمت ، نمت والدموع جارية على خدي حارة أشعر بحرارتها .

وفي منامي هذا رأيت رؤيا .. رأيت شيخاً أعمى في بيت الشيخ عبدالسلام

حُبوس جالساً على سجادة الشيخ ، فسألت هذا الشيخ الأعمى : من أنت ؟ وكيف دخلت البيت والمفتاح عندي ؟! ومن سمح لك بالدخول ؟! فرد عليَّ هذا الشيخ وقال : أما تعرفني ؟ أنا الإمام الشاطبي . قلت : أأنت الشاطبي صاحب المنظومة التي تملؤها الطلاسم من أولها إلى آخرها ؟ قال : نعم . قلت : أنا يا شيخي من تلاميذ الشيخ عبدالسلام حُبوس .. أتعرفه ؟ فقال : الشيخ عبدالسلام حُبوس على مذهبي . فقلت : يا شيخ سألتك بالله ، أرجوك ، أن تدعو لي أن أفهم ما كتبت ، فأنا لم أفهم من منظومتك بيتاً واحداً . فرأيت الشيخ الشاطبي وهو يرفع يديه باتجاه القبلة ويتمتم بكلمات لم استطع فهمها أو سماعها .. لكني أحسست أنه كان يدعو لي .

قمت من نومي هذا مستبشراً فرحاً قبل الفجر بنصف ساعة ، فأمسكت كتاب الشاطبية وبدأت أقرأ أبياتها . في السابق وقبل هذه الليلة .. كنت لا أقدر أن أقرأ منها بيتاً واحداً ، لكني الآن وبعد تلك الرؤيا ، أصبحت قادراً على قراءتها وفهم كل بيت تقع عيني عليه ، لقد حدثت معجزة .

صليت الفجر في المسجد ، ثم جلست فيه أحفظ أول أبيات الشاطبية حتى

طلعت عليَّ الشمس . لقد حفظت منها ٢٠ بيتاً ، لقد صار الحفظ لي ميسراً سهلاً والحمد لله . ذهبت مسرعاً أطير بسيارتي إلى بيت الشيخ ، فطرقت عليه الباب فرحاً طرق المجانين ، ففتح لي الباب مستنكراً هذه الزيارة المبكرة جداً وهذا الطرق الشديد المتوالي . قلت للشيخ : أبشر يا شيخ جاء الخير جاء الفرج ، رأيت الإمام الشاطبي في المنام لابساً لباسك نفسه وجالساً على سجادتك ، وقال لي : الشيخ عبدالسلام حُبوس على مذهبي . فما أن سمع مني الشيخ عبدالسلام هذه الكلمة حتى خرَّ ساجداً لله .. يشكر الله على هذه الرؤية وعلى هذا الفضل منه سبحانه .

أسمعتُ الشيخ أول ٢٠ بيتاً من الشاطبية من حفظي بإلقاء مميز جداً ، فكانت آثار السعادة والفرح بادية على وجهه بعد هذا التطور الغريب السريع في فهمي وحفظي . لقد أصبحت أُسمِّع القرآن على القراءات العشر من حفظي ، وآتي بشواهد اختلافات القرّاء من الشاطبية في مكانها الصحيح .

كان كل تسميعي للقرآن على القراءات العشر بالسيارة ! كنت آخذ الشيخ بالسيارة إلى أربعة مراكز للقرآن كان الشيخ يعطي الدروس فيها

ويشـرف عليها ، فـكان توصيلي له إلى هـذه المراكز المتباعـدة عن بعضها فرصتي للتسـميع عليه . ففي السـيارة أُسمِّع للشـيخ وآتي بالشواهد من الشاطبية ، وعند نزوله إلى أحد هذه المراكز الأربعة ، كنت أجلس في سيارتي أنتظره وأحفظ القرآن وأقرأ من الشاطبية .

اسـتمررتُ على هذا المنوال خمس سنوات وسـتة أشهر ، وفي سنة ٢٠٠٤ مـنَّ الله علـيَّ بحفظ القرآن الكـريم كاملاً بالقراءات السـبع . وبعد مدة يسـيرة أيضاً مع الشيخ استطعت أن أقرأ وأحفظ القراءات الثلاث المتممة للقـراءات السـبع .. فتفردت في هـذا الخير والحمدلله . فـلا يوجد أحد في العالم كله - رجالاً كانوا أو نسـاءً - أخذ القراءات العشـر بالسـند من الشـيخ عبدالسلام حُبوس غيري . فالحمد لله الذي خصني بهذا الفضل والتوفيق .

عدت إلى سـوريا ولم أجد في دير الزور والرقة والحسكة إلا رجلاً واحداً يحفظ القرآن الكريم بالسند من رواية حفص .. فقط رجل واحد من بين كل سـكان تلك المناطق جميعهـا يحفظ القرآن بالسـند ، وبرواية واحدة فقـط . سـألت عن هذا الحافظ الـذي أتم حفظه للقرآن منذ ٢٥ سـنة ،

فعرفت آسفاً أنه لم يُخرِّج من بين يديه أي تلميذ حافظ للقرآن الكريم ، رغم كل تلك السنين الطوال التي قضاها في تلك المناطق .

وبعد أن عرفت ذلك .. وجدت نفسي متحمساً لتبليغ ما عندي إلى الناس وتعليمه لهم . إني أريد أن أرى حفّاظ القرآن ودارسيه وقد تكاثرعددهم في تلك المناطق ، أريد أن أرى بركة القرآن وخيره وفضله وقد عمَّ على الناس وانتشر فيهم . كنت أريد نقل ما عندي إلى أكثر ما أستطيع من الناس ، لعلي أستمتع بسرعة بمشاهدة منظر طلاب العلم وطالباته وهم يخرجون من داري وقد حفظوا القرآن الكريم كما حفظته بكرم الله وفضله . وبرغم كل تلك الحماسة ، إلا إنني لم أستطع أن أظهر للناس وأقول لهم : أنا أحفظ القرآن بالقراءات العشر . لقد أحسست أنَّ ذلك من حب البروز والظهور .. المهم أني لم أعرف كيف أبدأ !

بعد ذلك بأسابيع عدة .. أوجعني ضرسي فقصدت طبيب المدينة . وقبل أن أدخل إلى عيادة الطبيب ، وجدت إعلاناً لأحد المشايخ على إحدى البنايات المقابلة للعيادة مكتوب فيه اسم الشيخ وعبارة القراءات العشر . فقلت في نفسي : لم أكن أظن أنَّ هناك من عنده سند القراءات العشر في دير الزور والمناطق القريبة منها غيري ، لقد كنت مخطئاً . استحييت من

نفسي ، وعرفت أنَّ في الناس من سبقني إلى هذا الفضل . لكن لم يكن ذلك بعد يقيناً قاطعاً ، فالشكوك ما زالت تساورني .

دخلت العيادة ورأسي تملؤه التساؤلات والشكوك .. فما أن سلمت على الطبيب إلا وبادرته مستفسراً : ما حكاية جارك الشيخ الذي يحفظ القرآن بالقراءات العشر ؟ فقال الطبيب موضحاً : هذا الشيخ لا يحفظ القرآن بالقراءات العشر ، بل برواية حفص فقط . لكن شيخه الموجود بالشام والذي تخرج منه للتو وأخذ الإجازة عنه ، هو من يحفظ القرآن الكريم بالقراءات العشر . فقلت في نفسي : الحمد لله أنه لم يسبقني أحد من بلدي إلى هذا الخير .

أطلعت الطبيب على ما دار في نفسي ، فعرف أجزاءً من قصتي وعرف بحفظي للقرآن ، فأصرَّ على دعوتي للغداء ، وقال مرغباً لي في قبول دعوته : إذا تغديت عندي اليوم في البيت سأدعو جاري الشيخ وأُعرِّفُك عليه . فقبلت دعوة الطبيب وجئته في الموعد المحدد . التقيت بالشيخ الجديد الذي عرف حكايتي وعرف قصة السند وإجازة القراءات العشر التي عندي

. فقال لي : أصبحت اليوم مطلوباً . ففزَّع عليَّ الناس ، وانتشر خبري فيهم بسرعة انتشار النار في الهشيم .

جاء الناس إلى داري في دير الزور أفواجاً أفواجاً . كان الناس يتوافدون إلى داري منذ صلاة الفجر ، ويسجلون أسماءهم مرتبة في كشوف وفق موعد وصولهم ، فالذي يصل أولاً يدخل عليَّ أولاً ويقرأ من حفظه نصف صفحة أو صفحتين أو أكثر ، كلٌ وفق اجتهاده وحفظه . كانت الأميَّة متفشية في مدينتي ، فكثير من الناس الذين يأتون إلى داري لا يحسنون القراءة كثيراً ولا يتقنون مخارج الحروف ، فلا بدَّ من الصبر على تعليمهم والتلطف معهم كما فعل الشيخ عبدالسلام حبوس معي من قبل .. كذلك كنتم من قبل فمنَّ الله عليكم .

في البداية كنت أستقبل الناس من الفجر حتى صلاة الظهر ، لكن مع التوارد الكبير المتتالي للناس إلى داري ، أصبح مجلس القراءة ينتهي في الساعة الثانية عشرة ليلاً . توارد إلى داري الرجال والنساء ، فكنت أنا أستقبل الرجال في مجلس الرجال في بيتي ، وزوجتي التي منَّ الله عليها بحفظ القرآن برواية حفص تستقبل النساء في مجلس خاص لهنَّ في بيتي ، تُسمِّع وتُعلِّم وتُصحِّح . وكان إذا كثر أعداد الرجال عليَّ في مجلس القراءة

طلبتها ، فتجيء لمجلس الرجال وقد غطت وجهها لتعاونني وليقرأ عليها بعضهم . وكانت إذا كثر النساء عليها طلبتني ، فآتي مجلسها لأسمع من بعضهنَّ وأعلِّمهنَّ .. فالناس في تزايد مستمر ولله الحمد ، ولا بدّ لنا من التعاون والعمل الجاد الذي لا يفتر .

مرت الشهور والسنون .. وتفضل الله علينا وقادنا برحمته لتنفيذ أعمال خيرية كثيرة في مناطق دير الزور والرقة والحسكة . فبنينا بأموال أهل الخير من أهل الكويت ١٤ مسجداً ، ومراكز إسلامية كبيرة ، ووزعنا أكثر من ٢٠٠ ألف مصحف ، وآلاف من مصاحف الجيب ومثلها من مصاحف التجويد الملونة ، ومئات الآلاف من الكتب والمراجع الإسلامية ، ووزعنا للأميين آلاف المسجِّلات ، وأكثر من ١٠ آلاف شريط (كاسيت) ختمات قرآن لمشايخ وقرّاء كبار ، وبنينا ثانوية شرعية للبنات ، وثلاثة مستوصفات ، وأربعة معاهد تعليمية ، وصحبنا للعمرة ألف حافظ للقرآن الكريم .. فشكراً للمساهمين والداعمين لنا من أهل الكويت على كل تلك المشاريع الطيبة .

والأهم من ذلك كله أني قد بررت بقسمي وأنا أبكي أمام الشيخ ! لقد كانت المناطق التي ذكرت قاحلة من حفّاظ كتاب الله ، لكن بفضل الله

ورحمته واستعماله لنا في طاعته ، انتشر علم القرآن وتعليمه بين الرجال والنساء ، وتكاثر حفّاظ القرآن الكريم في القرى البعيدة مثل الشنيطية والعشارة وحسرات .. حسرات التي بها سبع بنات حافظات للقرآن الكريم من بيت واحد . لقد أصبح في قرية القورية أكثر من ألف حافظ وحافظة للقرآن الكريم .. لقد أعانني الله بالإبرار بقسمي أمام الشيخ والطلاب وأنا أبكي في مجلسهم بعد أن أعيتني أبيات الشاطبية عن فهمها قائلاً للشيخ : أقسم بالله أقسم بالله أقسم بالله أنه لن ينشر علمك غيري . لقد انتشر علم القراءات انتشاراً كبيراً ، وتعلمه آلاف من الناس ، ومن مدن الشام المختلفة .. فلله الحمد والمنة والفضل .

عزيزي القاريء .. لم تنته همة الشيخ ونشره لعلم القراءات عند هذا الحد ، بل كانت له صولات وجولات ومغامرات جريئة في تحفيظ كتاب الله في مكان يستحيل التعليم فيه .. لكنه فعلها . فأتمنى من الفضائيات والمؤسسات الهادفة استضافته لتسمعوا منه أخبار تلك المغامرات وحكاياته التي كان هو بطلها ، والتي كان يستهدف منها زيادة حفّاظ كتاب الله ونشر علومه .

لا تقبل الرسائل السلبية

يُقـال أنَّ نسـراً كان يعيش على إحدى قمم الجبال ، واضعاً عشـه على هذه القمة . . عشـه الذي وضعت فيه أنثاه أربع بيضات كبيرة جميلة . وذات مرة . . حدث زلزال عنيف أزاحت هزّاته الشديدة إحدى البيضات الأربع من مكانها فسـقطت من العش وتدحرجت من قمة الجبل ليسـتقر بها المكان فـي مزرعـة للدجاج في بطن الوادي . فلما رأت دجاجات المزرعة البيضة الكبيرة ، قررن أن يحمين هذه البيضه ويقدمن لها كل العناية التي تحتاج إليها حتى تفقس ويخرج الصوص الذي بداخلها . عدَّت الدجاجات هذه البيضة كإحدى بيضاتها وتطوعت دجاجة كبيره في السـن لتوفير الرعاية الكاملة للبيضة الكبيرة . مرَّت الأيام سـريعاً وفقست البيضة ، فخرج منها نسـر صغير أسـود تلف رقبته ريشـات بيضـاء جميلة . لم يدرك النسـر الصغيـر أنه نسر حقيقي . . فهو لم يرَ حوله بعد أن خرج من البيضة إلا الدجـاج ، فبدأ يقلد الدجاج في كل شيء . . في المشية ، في الأكل ، في الصوت ، في كل شيء . . فصار دجاجة كدجاجات المزرعة .

وفي أحد الأيام والكل يلهو في سـاحة المزرعة . . رأى النسر الصغير مجموعة من النسور وهي تحلق عاليـاً في السـماء بكل ثقة وفخر وسـعادة ، فتمنى لو أنّه استطاع أن يحلق في الجـو عاليـاً كهذه النسور . . لقد ردد هذه الأمنية بصوت عالٍ . فلمـا سمع الدجاج هذه الامنية الطمـوحـة المستحيلـة ، بدأوا بالضحك عليه والسخرية منه . إنك مجرد دجاجة ، أين أنت من هذه الطيور العملاقة والأجنحة الضخمة ، لا يمكن أن تطير مثل هذه الطيور وتصل إلى هذا المسـتوى من التحليق ، كن منطقياً ودع عنك هذه الأحلام المسـتحيلة . وبالفعل . . صدق النسر الصغير كلام الدجاج وتوقف عن أحلامه ، وأيقن أنّه لن يتمكن من الطيران ، وأنه مجرد دجاجة عادية لا تملك ما تملكه النسور من قوة واستطاعة . وبعد فترة من الوقت . . مات النسر الصغير بعد حياة طويلة حافلة مع الدجاج . فعاش ومات بجسـم وإمكانات نسـر لكن بعقـل وتفكير دجاجة ، عـاش حياة طويلة ولـم يفكر ولو لمرة واحدة أن يطير متـراً واحـداً عن الأرض . . فقط متراً واحداً . لماذا لم يفكر أو يحاول ؟ لأنه صدقّ السـاخرين . . صدق الرسـائل السـلبية . عزيزي القاريء لك الخيار . . إما أن تعيش نسـراً أو تعيش دجاجة .